

رحمته ﷺ أثناء الحرب

الدكتور راغب الحنفي السرجاني

لعل الكثير ممن يقرأ عنوان هذا المقال يتعجب قائلاً: وهل في الحرب رحمة؟! والواقع أن هذا التعجب صحيح في عموم المعارك التي تجري وفق أي منهج من مناهج الأرض. غير أن منهج الإسلام ليس منهجاً أرضياً تعتريه نواقص البشر، وتؤثر فيه أهواؤهم، إنما هو منهج إلهي سماوي ليس فيه نقاط ضعف، أو ثغرات. ثم كانت حياة رسول الله ﷺ خير دليل على واقعية هذا المنهج، فطبق كل بنوده دون تفريط أو تحريف. وكان من أهم بنود هذا المنهج الراقي بروز عنصر الأخلاق بشكل عام، والرحمة بشكل خاص، حتى شملت الأخلاق - حقيقة - كل مناحي الحياة. وكانت الحرب من الأمور التي لم يستثنها هذا المنهج الرفيع، فجاءت حروب الإسلام أخلاقية بمعنى الكلمة.

وباستقراء سيرة الرسول ﷺ في المعارك الحربية المختلفة، سواء ما فعله بنفسه ﷺ، أو ما كان يوصي به صحابته رضي الله عنهم جميعاً في عملياتهم الحربية تتضح لنا ملامح هذا المنهج الأخلاقي الرائع الذي مارسه رسول الله ﷺ، وطبقه عملياً في حياته تطبيقاً واقعياً يؤكد عمق الإيمان بهذا المنهج، مما كان له أثر إيجابي بارز على الجيل الأول ومن تبعهم، فرأينا استمرارية هذا المنهج الأخلاقي من خلال الفتوحات الكثيرة التي تمت في عهد الخلافة الراشدة وصدر الإسلام.

الاستعداد النفسي لقبول فكرة "حقن الدماء"

كان محمد دائماً يعمل على حقن الدماء^(١).

بحلول شهر أكتوبر من سنة ١٩٤٤ م استطاعت الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها تحقيق التفوق البري والبحري والجوي على دول المحور وخاصة اليابان

^(١) هيدلي: لورد إنجليزي اعتنق الإسلام سنة ١٩١٤ م، وكتب مذكراته في كتاب (رجل غربي يصحو فيعتنق الإسلام).

وألمانيا، وبدا أن الحرب العالمية الثانية أوشكت على الانتهاء. وفي مارس ١٩٤٥م ألحقت الغارات الجوية الأمريكية باليابان خسائر مروعة وفي مدن مهمة مثل طوكيو وأوزاكا ويوكوهاما، ثم أصبح موقف اليابانيين حرجا للغاية بعد أن استسلمت ألمانيا في مايو ١٩٤٥م، وبات أمر استسلام اليابان مسألة وقت، بل لقد ألححت اليابان بالفعل إلى هذه الرغبة عن طريق روسيا، ومع ذلك قامت الولايات المتحدة بفعلتها الشنعاء وألقت القنبلة الذرية على مدينة هيروشيما اليابانية، ثم أتبعتها - وبعد ثلاثة أيام فقط - بالقنبلة الأخرى على مدينة ناجازاكي، وتم سحق اليابان^(١)!!

هذا حالهم ولكن الإسلام شيء آخر!!

إن الجيوش المنتصرة غالبا ما ترفض أي اقتراحات تشير إلى وقف القتال، أو عدم الإسراف في سفك الدماء، ذلك لأنها تعتبر تقدمها فرصة سانحة لإجهاض أي محاولة لقيام عدوها من جديد. ومن ثم أصبح متعارفا بين الناس أن الضعيف فقط هو الذي يطلب السلام، وأنه ما دام بالجيش قوة فلا بد أن يكمل المسيرة، ولا ينظر هنا إلى الأرواح التي تزهر، ولا إلى الخراب الذي ينتشر، فالهدف هو إقصاء العدو تماما، ليس عن ساحة القتال فقط، ولكن عن الحياة بكاملها!

غير أن هذه النظرة ليست عند رسول الله ﷺ بالمرة!

إن رسول الله ﷺ كان ينظر للحرب على أنها ضرورة اضطرارية لا يريد لها ولكن دفع إليها دفعا، وينظر إلى عدوه الذي يقاتله على أنه رجل جهل الإسلام فحاربه، ولو عرفه لدخل فيه، ولدافع عنه، ولذلك نرى رسول الله ﷺ - في حروبه - حريصا على انتهاز الفرص لحقن دماء عدوه، ومستعد لذلك استعدادا كاملا، مما أنتج لنا سجلا حافلا بالمواقف التي يراها عموم الناس عجيبه، ولو درسوا الإسلام لعرفوا أنها ليست إلا بنود هذا الشرع الرحيم.

ومن ذلك مثلا أن من دخل في الإسلام - ولو أثناء الحرب - لا يجوز قتله، حتى لو كان دخوله الإسلام مشكوكا فيه، فهذا هو رسول الله ﷺ ينكر على أسامة بن زيد رضي

^(١) هـ. أ. ل. فيشر: تاريخ أوروبا في العصر الحديث ص ٧١٠ - ٧١٢.

الله عنهما قتله لرجل^(١) أثناء الحرب بعد أن قال: لا إله إلا الله، ففي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ بعث بعثا من المسلمين إلى قوم من المشركين^(٢)، وإنهم التقوا فكان رجل من المشركين إذا شاء أن يقصد إلى رجل من المسلمين قصد له فقتله، وإن رجلا من المسلمين قصد غفلته - قال - أي الراوي - : وكنا نحدث أنه أسامة بن زيد - فلما رفع عليه السيف قال: لا إله إلا الله، فقتله، فجاء البشير إلى النبي ﷺ فسأله فأخبره حتى أخبره خبر الرجل كيف صنع، فدعاه فسأله فقال: لم قتلته؟ قال: يا رسول الله، أوجع في المسلمين وقتل فلانا وفلانا - وسمى له نفرا - وإني حملت عليه، فلما رأى السيف قال: لا إله إلا الله، قال رسول الله ﷺ: أقتلته؟ قال: نعم. قال: فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟ قال: يا رسول الله، استغفر لي. قال: وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟ قال: فجعل لا يزيدني على أن يقول: كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟^(٣).

فهذا موقف يجسد ما ذكرناه من قبل توضيحا لرؤية رسول الله ﷺ للمحاربين له. فهذا الرجل الذي قتله أسامة بن زيد رضي الله عنهما لم يكن رجلا عاديا من عموم الكفار، ولكنه كان رجلا شديدا أوجع في المسلمين، وقتل منهم نفرا كبيرا، ثم إن أسامة بن زيد رضي الله عنهما تمكن منه، ورفع السيف عليه ليقتله، فقال الرجل: لا إله إلا الله! إن أي محلل للحدث، وأي مراقب له لن يقول إلا ما قاله أسامة، إن الرجل لم يقل لا إله إلا الله إلا تعوذا من القتل، وإلا فما الذي دفع الإسلام في قلبه في هذه اللحظة بالذات؟ لكن رسول الله ﷺ كانت له رؤية مختلفة، لقد كان يريد أن يحقن دمه، ويعفو عنه، فاعل الاحتمال البعيد جدا - وهو أنه قد أسلم فعلا عن قناعة - قد حدث بالفعل، أو لعله عندما يدخل الإسلام يراه من الداخل فيؤمن به صادقا، أو لعله يتأثر بعفو أسامة عنه في كفر في الدين الذي غرس فيه ذلك العفو. إن هذه

(١) قيل هو: نهيك بن مرداس.

(٢) تذكر الروايات أن ذلك كان في سرية غالب بن عبد الله الليثي في رمضان سنة ٧هـ، إلى بني عوال، وبني عبد بن ثعلبة بالميفعة، وقيل: إلى الحرقات من جهينة، في مائة وثلاثين رجلا. انظر: عيون الأثر ٢ / ١٥٦.

(٣) مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله (٩٧).

الطريقة في التفكير لا تخطر - بحال من الأحوال - على ذهن زعيم من زعماء الدنيا، ولن تكون أبدا إلا من رجل جعل همه الأول والأخير هو استنقاذ البشرية من الكفر إلى الإيمان، ومن الجنة إلى النار، وهذه رحمة فاقت كل تصور، وتعددت كل خيال! ولم يكن الإسلام شرطا لقبول فكرة إنهاء الحرب، بل كان ﷺ يتعلق بأي بادرة تشير إلى رغبة العدو في حقن الدماء، حتى ولو كان العدو في حالة واضحة من الضعف، ولا يطلب وقف القتال إلا لإنقاذ نفسه من الموت!

مثال ذلك ما حدث في غزوة خيبر.. فبعد أن ظهرت بشائر النصر للمسلمين، أعلن العدو اليهودي عن قبوله للصالح مع الرسول ﷺ! فماذا كان رد فعل رسول الرحمة ﷺ؟

يقول ابن كثير: "فلما أيقنوا بالهلكة، وقد حصرهم رسول الله ﷺ أربعة عشر يوما، نزل إليه ابن أبي الحقيق، فصالحه على حقن دمائهم، ويسيرهم، ويخلون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من الأرض والأموال والصفراء والبيضاء والكراع والحلقة...، إلا ما كان على ظهر إنسان، يعني لباسهم. فقال رسول الله ﷺ: "وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كنتم شيئا". فصالحوه على ذلك^(١).

فبرغم كل التاريخ الأسود مع اليهود عامة، ويهود خيبر بصفة خاصة، وبرغم حرصهم على جميع الأحزاب لإبادة المسلمين قبل أقل من سنتين من هذه المعركة، إلا أن رسول الله ﷺ يقبل بصلحهم، ويحقن دماءهم.

وفي غزوة بني المصطلق، ورغم انتصار المسلمين، وأسره مائة بيت من بني المصطلق، إلا أن الرسول ﷺ حقن دماءهم، ولم يفعل كقادة الجيوش وقتها أو الآن، فيقتلهم جميعا، ليأمن شرهم إلى الأبد، بل زاد الرسول ﷺ على الإبقاء على حياتهم أن أعاق جويرية بنت الحارث، وهي ابنة سيد بني المصطلق، وتزوجها، وذلك ليحفز المسلمين على إعتاق أسرى بني المصطلق رحمة بهم، فقال المسلمون: أصهار رسول الله ﷺ، فأطلقوا سراح جميع ما بأيديهم من السبي.

إن هذا التاريخ ليس تاريخ ملائكة!

(١) ابن كثير: السيرة النبوية ٣ / ٣٧٦، ٣٧٧.

وإنما هو تاريخ رسول الله ﷺ، وتاريخ قوم آمنوا بالإسلام، وطبقوه في حياتهم. ولعل أكثر من كل ما سبق هذا المظهر العجيب من مظاهر رحمته ﷺ، وهو أنه كان يحرص على تحين الفرص لحفظ دماء بعض الذين يقاتلونه، مع أنهم ما زالوا مستمرين في قتاله!

من ذلك ما فعله رسول الله ﷺ في غزوة بدر حيث نهى عن قتل من خرج مستكرها من المشركين، رغم أن ذلك في ميدان القتال والحرب، والمتعارف عليه بين جميع البشر أن من يقاتلك تقاتله، ولكن الرسول ﷺ كان يأخذ بروح القاعدة وليس بنصها، لذا فهو قد يأسر المستكره لكي يتجنب مقاتلته ويجنبه القتال أيضا، ولكن لا يقتله إلا إذا أصر على القتال، فقد روى ابن إسحاق رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال لأصحابه قبيل غزوة بدر: "إني قد عرفت أن رجالا من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحدا من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري بن هشام فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنما خرج مستكرها" ^(١). فهل في الدنيا مثيل لذلك؟

المبحث الثاني: رحمته ﷺ بالمدينين والمستكرهين على القتال

كان محمد حليما رقيق القلب عظيم الإنسانية ^(٢).

وحتى الحماة افتضح كونهم مسيئين!!

في عام ٢٠٠٢ م، علم المجتمع الدولي باستغلال الشابات في مخيمات اللاجئين في غرب إفريقيا، وما كان صادما حقا هو أن ذلك الاستغلال كان يجري على أيدي موظفي الأمم المتحدة وموظفي الإغاثة، وأفراد حفظ السلام الدوليين، وهم نفس الأفراد المكلفين بحماية اللاجئين، وقد اكتشف المحققون أن الموظفين كانوا

^(١) ابن هشام: السيرة النبوية ١ / ٦٢٨، وانظر أيضا: ابن كثير: السيرة النبوية ٢ / ٤٣٦.

^(٢) إميل درمنغم (مستشرق فرنسي عمل مديرا لمكتبة الجزائر): حياة محمد، تعريب عادل زعيتر، ط ٢، دار العلم للملايين،

يقايضون الإمدادات والخدمات الإنسانية - من قبيل القمح والأدوية وحصص الإعانات ودورات التعليم - في مقابل ممارسة الجنس مع فتيات المخيمات^(١).

هذا حالهم ولكن الإسلام شيء آخر !!

لا يجوز أن تتعدى الحرب إلى المدنيين الذين لا يشتركون فيها من الشيوخ والنساء والأطفال والعجزة، أو العباد المنقطعين للعبادة، أو العلماء المنقطعين للعلم، والخدم الذين لا يملكون من أمر أنفسهم شيئاً إلا إذا قاتلوا، أو كان لهم في تدير الحرب رأي ومكيدة، لأن القتال هو لمن يقاتلنا^(٢).

ونحن نعلم أن أعراف الدول الآن لا تجيز قتل المدنيين، ولكن - والجميع يعلم - من الذي يحترم هذه الأعراف؟ ومن الذي يرفع حرمة المساكين الذين لا يقاتلون؟ إننا سنتعرض - إن شاء الله - في آخر هذا البحث لصورة الحضارات الحديثة في تعاملها مع المدنيين، لنذكر عن يقين مدى عظمة رسول الله ﷺ ورحمته.

يقول الأستاذ سعيد حوى^(٣): "في المواطن التي تغلب - عادة - فيها عواطف الرحمة بعواطف الانتقال أو الانتصار، تبقى صفة الرحمة عند رسول الله ﷺ في محلها لا تطفئ على غيرها، ولا يطفئ غيرها عليها"^(٤).

المطلب الأول: وصايا نبوية عامة:

أوصى رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه عندما أرسله في شعبان سنة ٦ هـ إلى قبيلة كلب النصرانية الواقعة بدومة الجندل، فقال له: "اغزوا جميعاً في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً، فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم"^(٥).

^(١) صندوق الأمم المتحدة للسكان، تقرير حالة السكان ٢٠٠٦م، الفصل الرابع، الرابط الإلكتروني: http://www.unfpa.org/swp/2006/arabic/chapter_4/violence_against_women.html

^(٢) ابن تيمية: السياسية الشرعية، ص ٩٣٢.

^(٣) سعيد حوى (١٩٣٥م - ١٩٨٩م) كاتب ومفكر إسلامي سوري، من مؤلفاته: الرسول ﷺ، غذاء العبودية، إحياء الريانية، قوانين البيت المسلم.

^(٤) سعيد حوى: الرسول ﷺ، ص ١٣٧.

^(٥) الحاكم (٨٦٢٣)، وقال الذهبي في التلخيص: صحيح. ابن هشام: السيرة النبوية ٢ / ٦٣١.

عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيوشه قال: "أخرجوا باسم الله، تقاتلون في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع" ^(١).

كانت تلك هي وصاياه ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم جميعا، عندما كان يرسلهم لدعوة الناس إلى الإسلام، والأخذ بأيديهم إلى طريق الله تعالى، وفتح الأبواب أمام الدعوة الإسلامية حتى تصل لكل البشر، وحتى لا يحرم أحد من نور الإسلام العظيم.

المطلب الثاني: رحمته ﷺ بالصغار وإن كانوا مقاتلين:

لم تكن حالات الحرب والقتال لتخرج النبي ﷺ عن أخلاقه السامية، وعن رحمته التي يتحلى بها حال السلم، لذا فقد كان يرحم الغلمان وصغار السن الذين لا يملكون أمرهم، ويأتون للحرب ضد المسلمين أو لمعاونة ساداتهم، مع أن تلك المساعدة هي من صميم أعمال الحرب، لكنه ﷺ كان يرحم طفولتهم. ففي أحداث غزوة بدر ذكر ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ بعث علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم في نفر من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون الخبر له عليه (أي على الماء)، فأصابوا راوية ^(٢) لقريش فيها أسلم غلام بني الحجاج، وعريض أبو يسار غلام بني العاص بن سعيد، فأتوا بهما فسألوهما، ورسول الله ﷺ قائم يصلي، فقالا: نحن سقاة قريش، بعثونا نسقيهم من الماء. فكره القوم خبرهما، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان فضربوهما، فلما أذلقوهما ^(٣) قالوا: نحن لأبي سفيان فتركوهما، وركع رسول الله ﷺ، وسجد سجديته، ثم سلم وقال: "إذا صدقاكم

^(١) أحمد (٢٧٢٨)، والبيهقي (١٧٩٣٣)، وقال الهيثمي في المجمع: رواه أبو يعلى والبزار والطبراني في الكبير والأوسط، إلا أنه قال فيه: "ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ولا شيخا"، وفي رجال البزار إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة، وثقه أحمد، وضعفه الجمهور، وبقي رجال البزار رجال الصحيح. وقال شعيب الأرنؤوط: حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف.

^(٢) الراوية: الدواب التي يستقى عليها الماء.

^(٣) أذلقوهما: آذوهما.

ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما! صدقا، والله إنهما لقريش. ثم خاطب ﷺ الغلامين بلين ورفق قائلا لهما: أخبراني عن قريش؟^(١).

ومع أن هذين الغلامين اللذين ضربا من الجيش المعادي - جيش المشركين - ويمدان الجيش بالماء، إلا أن الرسول ﷺ عاتب صحابته الكرام لأجلهما، وأنكر عليهم ضربهما، بل إنه لم يتخذهما أسيرين مع أن الحرب على الأبواب، ومع أنهما قد يحملان بعض الأخبار إلى العدو، ولكنه رحم صغر سنهما وضعفهما.

وكذلك كان ﷺ يفعل بنفسه، فكان ينهى عن قتل النساء والولدان، وكان ينظر في المقاتلة، فمن رآه أنبت قتله، ومن لم ينبت استحياه^(٢).

وهؤلاء مع أنهم يقاتلون بالفعل إلا أنهم غير بالغين، وبالتالي غير مكلفين، ومدفوعين بغيرهم، فلذلك رحمهم.

المطلب الثالث: رحمته ﷺ بالنساء:

كما كان ﷺ ينهى عن قتل النساء، فقد روى مالك عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ رأى في بعض مغازيه امرأة مقتولة، فأنكر ذلك، ونهى عن قتل النساء والصبيان^(٣).

وعن رباح بن ربيع قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة، فرأى الناس مجتمعين على شيء، فبعث رجلا فقال: "انظر علام اجتمع هؤلاء؟ فجاء فقال: على امرأة قتيل. فقال: "ما كانت هذه لتقاتل". قال: وعلى المقدمة خالد بن الوليد، فبعث رجلا فقال: "قل لخالد: لا يقتلن امرأة ولا عسيفا^(٤)"^(٥).

^(١) ابن هشام: السيرة النبوية ١ / ٦١٦، ٦١٧. وانظر الصالحى الشامى: سبل الهدى والرشاد ٤ / ٢٧. وابن كثير: البداية والنهاية ٣ / ٢٩٤.

^(٢) ابن القيم: زاد المعاد ٣ / ٩٠. ومعنى أنبت: أي أنبت الشعر الذي يظهر عند البلوغ. واستحياه: عفا عنه فلم يقتله.

^(٣) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب قتل النساء في الحرب (٢٨٥٢)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب (١٧٤٤)، وابن ماجه (٢٨٤٢)، وأحمد (٤٧٣٩)، والدارمي (٢٤٦٢)، وابن حبان (١٣٥)، والحاكم في المستدرک (٢٥٦٥).

^(٤) عسيفا: أجيرا.

^(٥) أبو داود (٢٦٦٩)، وأبو يعلى (١٥٤٦). وقال الألباني: حسن صحيح. انظر: صحيح سنن أبي داود للألباني (٢٣٢٤).

المطلب الرابع: رحمته ﷺ بأصحاب الظروف الخاصة.

وقد وسعت رحمة الرسول ﷺ أعداءه الذين آذوه وقاتلوه، وحرصوا على قتاله، ولكن كانت لهم ظروف خاصة.

ومن هؤلاء أبوعزة الجمحي، وكان شاعرا، وكان يؤلب قريشا على الرسول ﷺ والمسلمين، فلما جاءت غزوة بدر أسره المسلمون، وكان من أمره ما يرويه سعيد بن المسيب رحمه الله في قوله: آمن رسول الله ﷺ من الأسارى يوم بدر أباعزة عبد الله بن عمرو بن عبد الجمحي، وكان شاعرا، وكان قال للنبي ﷺ: يا محمد، إن لي خمس بنات ليس لهن شيء، فتصدق بي عليهن. ففعل، وقال أبوعزة: أعطيك موثقا أن لا أقاتلك، ولا أكثر عليك أبدا. فأرسله رسول الله ﷺ، فلما خرجت قريش إلى أحد جاءه صفوان بن أمية، فقال: اخرج معنا، فقال: إني قد أعطيت محمدا موثقا أن لا أقاتله. فضمن صفوان أن يجعل بناته مع بناته إن قتل، وإن عاش أعطاه ما لا كثيرا، فلم يزل به حتى خرج مع قريش يوم أحد، فأسر ولم يؤسر غيره من قريش، فقال: يا محمد، إنما أخرجت كرها، ولي بنات، فامنن عليّ. فقال رسول الله ﷺ: آين ما أعطيتني من العهد والميثاق!! لا والله لا تمسح عارضيك بمكة تقول: سخرت بمحمد مرتين". قال سعيد بن المسيب: فقال النبي ﷺ: "إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين. يا عاصم بن ثابت، قدمه فاضرب عنقه"، فقدمه فضرب عنقه^(١).

رغم معاداة أبي عزة للإسلام والمسلمين، إلا أن النبي ﷺ عفا عنه وأطلقه دون مقابل لأجل بناته، وتلك رحمة كبيرة من رسول الله ﷺ تجاه ذلك الشاعر الذي كان يمثل إحدى الآلات الإعلامية الجبارة ضد دولة الإسلام في ذلك الوقت، أما في المرة الثانية فكان لابد من إيقاف هذه الآلة حتى لا يظن المشركون أنه يمكن خداع الرسول ﷺ وأصحابه بسهولة، وذلك كي تظل هيبتهم في القلوب.

^(١) البيهقي (٧٨٠٨)، وابن كثير: البداية والنهاية ٤ / ٥٩، وانظر: نصب الراية للزيلعي ٣ / ٤٠٩.

المطلب الخامس: رحمته ﷺ بالقتلى وذويهم:

وظهرت رحمة الرسول ﷺ في حرصه حتى على القتلى، وكذلك على مشاعر ذويهم، لذا فقد نهى ﷺ عن المثلة. فعن عبد الله بن زيد رضي الله عنه قال: "نهى النبي ﷺ عن النهبى^(١)، والمثلة"^(٢).

وقال عمران بن الحصين رضي الله عنه: "كان رسول الله ﷺ يحثنا على الصدقة، وينهانا عن المثلة"^(٣).

ورغم ما حدث في غزوة أحد من تمثيل المشركين بحمزة رضي الله عنه عم الرسول ﷺ، فإنه ﷺ لم يغير مبدأه، بل حرص على النهي عن المثلة حتى مع المشركين، ولم يرد في التاريخ حادثة واحدة تقول: إن المسلمين مثلوا بأحد من أعدائهم. وقد يتخذ البعض قاعدة (المعاملة بالمثل) مبررا لهم ليفعلوا ما يشاءون في أعدائهم، محاربين كانوا أو مدنيين، ولكن الإسلام لا يقر القسوة أو الظلم مهما كانت المبررات، ولذلك لا يطبق هذه القاعدة مع المدنيين للدولة المحاربة، حتى لو آذوا المدنيين في بلادنا!

يقول الله تعالى: {ولا يجرمكم شأن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى} ^(٤).

قال القرطبي: "ودلت الآية أيضا على أن كفر الكافر لا يمنع من العدل عليه، ... وأن المثلة بهم غير جائزة، وإن قتلوا نساءنا وأطفالنا وغمونا بذلك، فليس لنا أن نقتلهم بمثلة قصدا لإيصال الغم والحزن إليهم"^(٥).
فهل في مناهج الأرض مثل منهجنا؟

(يتبع)



^(١) النهبى: أخذ المرء ما ليس له جهارا. المثلة: التكيل بالمقتول بقطع بعض أعضائه.

^(٢) البخاري: كتاب المظالم، باب النهبى بغير إذن صاحبه (٢٣٤٢)، ورواه الطيالسي في مسنده (١٠٧٠)، ورواه البيهقي في سننه الكبرى (١٤٤٥٢).

^(٣) أبوداود (٢٦٦٧)، وعبدالرزاق (١٥٨١٩)، وقال الشيخ الألباني: صحيح. انظر: صحيح سنن أبي داود (٢٣٢٢).

^(٤) المائدة: ٨.

^(٥) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٦ / ١١٠.